الحضور الفلسفي اليوناني عند هيجل

أ.د.ليلى بوسيف
جامعة وهران 2

Abstract:
The idea of existence and its origin occupieol, and still occupy the thought of human being, and these since the beginning of humanity in earth until know.
The question about the existence is only question of it's destiny, at the end of its existence, the matter of it let all humanity to take it in to consideration from or since the legends or myths, religions, and philosophy, and also from the beginning of Egyptian myths and India China the creeks and Persian myths, this took place since Jan Paul Sartre passing threw all philosophers like or as Plato, Aristotal, Ibn Rushd, Thomas d'Aquin, Ibn Sina, Reny Descartes and Kent, also Hegel, Heidegger.
In his understanding to the existence Heraclitus think that only eternal fighting in which the logo led to control the existence by the flame of fire for ever and it's let nothing survived after it but only to die / and not die only to survive another time in a new way, and after it's appear in a new way again to control the existence to lets the elements of existence different and to match each one of it and also to not match and to differ in another time.
In this theses there are views of Heraclitus in the existence and in the eternal existence and degree the philosophy of Heraclitus in the existence and there eternal return aver other philosophy in general and over the modern philosophy in specific.
Key words:
Logs – Fighting – The eternal return – Existence – The absolute – Fire.

في جو اتسم، على المستوى السياسي الداخلي الألماني بتفكك الدويلات المحلية، التابعة، مباشرة أو غير مباشرة " لبروسيا "، وعلى المستوى السياسي الخارجي الأوروبي، بصعود البورجوازية اقتصاديا، وبتحضيرها للثورات السياسية والاقتصادية التي شهدتها أوروبا طيلة القرن الثامن عشر، وفي مقدمتها الثورة الفرنسية (1789)، وعلى المستوى الفلسفي بتراجع العقلانية في شكلها الذي ظلت تعرف به منذ ديكارت (Descartes 1596-1650م) كمعيار شمولي، ووحيد للمعرفة الحقة، وعلى المستوى الديني بعودة المسيحية من جديد بعد الهزة المؤقتة، التي تعرضت لها، في فرنسا الثورة، بصورة خاصة، وفي أوروبا بعد ذلك، ولد هيغل (Hegel)1770 – 1831م بمدينة " شتوتغارت " بألمانيا. ومن ازدهار العلم التجريبي ممثلا بصورة خاصة وبالنسبة لهيغل في نيوتن (Newton 1642 -1727 م) وفي نظريته في الجاذبية وفي محاولة الفلسفة، خاصة من خلال كانط (E. kant 1724-1804م) وفلسفته النقدية، السير على منواله " جاءت فلسفة هيغل بمثابة تتويج للفلسفة العقلانية في القرن الثامن عشر وافتتاحا للنزعات الذاتية (الوجودية، الحيوية Vitalisme) التي ميزت الفلسفة في القرن التاسع عشر" [(1)]. بمثل هذه العوامل تأثرت فلسفة هيغل، وهذا إضافة إلى تأثرها كذلك خاصة على المستوى الفلسفي بالعديد من الفلاسفة الآخرين القدماء منهم والمحدثين وفي مقدمتهم كانط (E.Kant) وعقلانيته النقدية القائمة أساسا على التفريق بين الطبيعة وبين الفكر، وهو التفريق الذي سيحوله هيغل، وكما سنرى إلى وحدة دينامية.
غير أن تأثر هيغل في فلسفته في الوجود بهيراقليطس (Héraclite، 480-540 ق.م) وذلك من خلال تبنّيه للمنطق الجدلي الذي يعتبر واحدا من ابرز ملامحها، ومن خلال اعتباره للعقل (بمفهومه الواع المتمثل في "اللوغوس"

logos)، كمبدأ أول للوجود، وكحام له. وذلك ما يعترف به هيغل، على أي حال، حيث يقول: أنني لم اترك أي قضية طرحها هيراقليطس خاصة في المنطق لم أتبناها. فهير اقليطس يقول: إن كل شيء صيرورة، وإن هذه الصيرورة مبدأ الوجود. إن هذا القول متضمن في عبارة هيراقليطس التي يؤكد فيها "بأن الوجود ليس شيئا أكثر من اللاوجود" " L'être n'est pas plus que le non –être " وإن الصيرورة موجودة، وغير موجودة كذلك. كما يقول هيراقليطس أن التحديدات المتضادة مرتبطة في النهاية في وحدة فيها من الوجود بقدر ما فيها من اللاوجود "[2]. ويضيف هيغل " أن هيراقليطس كان أول من صاغ طبيعة اللامحدود (L'infini) وأول من نظر إلى الطبيعة على أنها غير محدودة في حد ذاتها، وأكد أن جوهرها أشبه بالعملية التحولية (Procéssus)، لذلك فإن الفلسفة الحقة قد بدأت بهيراقليطس" [3]. وإذا كنا يجب أن نلاحظ هنا أن مثل هذا التمجيد الهيغلي لهيراقليطس لا يجب أن ينسينا أن صاحبه قد انحرف، وكما نرى، وفي أكثر من موضع،عن فلسفة هيراقليطس، فإن الحقيقة التي لاشك فيها، هي أن تأثر هيغل بهيراقليطس أمر لاشك فيه. ولكي نقف بكيفية واضحة على مدى التأثير الذي مارسه هيراقليطس على هيغل، وعلى غيره من الفلاسفة العديدين القدماء منهم والمحدثين، والمعاصرين بارميندس (Parménide 504 -450 ق.م) بروتاغوراس (Protagoras 481 - 410 ق.م) أفلاطون (Platon 427-347ق.م)، نيتشه (Friedrich Nietzsche 1844-1900م)، هيدغر (Heidegger 1889-1976م)، سارتر (JP Sartre 1905-1980 م)، فإننا سنعرض فيما يلي، وبصورة مختصرة، لفلسفة هيغل في الوجود – لنبين بعد ذلك نماذج من هذه الاختلافات، حتى لا نقول التحريفات، التي تفصل بين الفيلسوفين اليوناني والألماني. يرى هيغل أن الوعي الذي يعتبر الخاصية الأساسية للإنسان محكوم عليه حتى لا يبقى ظاهرة أو " أنا " مجردا منغلقا على نفسه أن يخرج من ذاته إلى الوجود وان يصطدم به ليؤدي فاعليته فيه كوعي لا يتحقق للوعي مثل ذلك الخروج، إلى الواقع والاصطدام به، وهو الاصطدام به، وهو الاصطدام الذي لا يلبث أن يجعله يعي... أنه متميز عنه باعتباره كائن لذاته (Pour -Soi) عكس ذلك الوجود الذي هو كائن في ذاته (En-soi) والذي عليه أن يؤكده تمايزه ذاك عنه عن طريق النفي المستمر له (أي الوجود). بذلك نفهم كيف أن الوعي، (الإنسان) يشكل العدو الأساسي للوجود (L'homme est l'ennemi de l'être). وبذلك أيضا يدرك الوعي الإنساني محدوديته في تلك الطبيعة ونهايته الحتمية فيها، أي تحوله، عبر الموت، من كائن لذاته (Pour -Soi) إلى كائن في ذاته (En-soi) أي مجرد شيء من أشيائها، هكذا تتحول بالتالي عملية إلغائه ونفيه لوجود الوجود (L'être) إلى شرط أساسي لوجوده، هو كوعي متمايز عن ذلك الوجود. وفي مثل هذه العلاقة، التدميرية، للوعي بالوجود والتي حكم على الوعي بها، نظرا إلى أنه، لا وجود له، من جهة، إلا بذلك الوجود، تماما كما أنه لا وجود للوجود إلا به، ونظرا إلى انه لا وجود له من جهة أخرى إلا بنفي ذلك الوجود، فإنه لا يلبث أن يدرك أن ذلك الوجود متغير في أشيائه وإحداثه، أي أنه مسار من المتناقضات. فالشيء أو الحدث أو الظاهرة في ذلك الوجود يكون ثم يصبح ثم يصير ثم ينتهي، لتبتدأ دورة جديدة لشيء بل لأشياء أخرى وهكذا دواليك. وأمام هذه الحقيقة الوجودية المتغيرة أبدا، والتي سبق لهيراقليطس اكتشافها والتي يطلب فيها كل شيء ضده، أدرك هيغل الوسيلة الوحيدة لإمساك بالوجود، وبالواقع المتجسد من خلاله، لا يمكن أن يكون المنطق الأرسطي المجرد والقائم

أساس عل مبدأ ثبات الهوية (L'identité)، بل لابد من وسيلة فكرية جديدة تطابق صراع وصيرورة معطيات ذلك الواقع، وتغيرها وتطورها. وليست هذه الوسيلة، فيما ذهب "هيغل" سوى الجدل (La dialectique) الذي اتخذه بالتالي كأداة وحيدة لمقاربة ذلك الواقع، وذلك الوجود. هكذا فإن اصطدام الوعي بالعالم أو بالواقع هو الذي يحول الوعي من مجرد وعي مجرد وقائع داخل ذاته إلى وعي مدرك لذاته كذات متميزة عن ذلك الوجود المتواجد فيه وإلى وعي فاعل في ذلك الوجود بالتالي.. ومنفعل به في الوقت نفسه. بذلك يستخلص "هيغل" أن مثل هذا الوعي، الواعي بذاته وبالعالم شرط ضروري لإدراك هذا الأخير "العالم" تماما كما أن العالم شرط ضروري لإدراك الوعي حيث أنه لا تصور لوعي بدون الواقع أو للواقع بدون الوعي.

إن هذا المنهج الجدلي، الذي نلاحظ أن أصوله ترجع إلى سقراط (Socrate 470-399ق.م) وبارمينديس، وتلميذه زينون الآيلي (Zénon d'Elée 490-385 ق.م) وأفلاطون وكانط.. إلخ، لا يعني عند هيغل التراجع التأملي لفكرنا نحو الأشياء، أو التفسير أو التعليق المستمر على كل ما صدر عنه سابقا. كما أنه لا يعني المعنى الكامل الذي لا يتضح الحاضر فيه إلا إذا اكتمل الماضي واستطاع أن يشير إلى المستقبل.

ذلك أن الفكرة عند هيغل تتضمن في محتواها الظاهر والواضح شيئا آخر مختلفا عنها، ولذلك تؤدي كل فكرة " Thèse " إلى نقيضها " Anti –thèse" وإلى ذوبان الفكرتان معا وفي النهاية في مركب واحد "Synthèse". مثل هذا الانتقال للفكرة وللشيء هو الذي انتهى بهيغل بدوره إلى طرح فكرة الصيرورة "Devenir " كحقيقة أولى للوجود.

ذلك أن هيغل يرى أن الحركات المتتابعة لجدله إنما جاءت كضرورة لما قبلها،أي أن المراحل اللاحقة من الجدل حتمتها المراحل السابقة، حيث آن اللاحق ينبثق، منطقيا، وبالضرورة من السابق، فالمراحل تتباعد على هذا النحو، وكل مرحلة تتلوها مرحلة واحدة معينة بحيث تكون مراحل الجدل سلسلة مترابطة لا فروع لها وهي السلسلة التي يسميها هيغل " بالعلم المنتظم"[4] والتي هي أشبه بعالم الأعداد الطبيعية المتتابعة التي يلي السابق منها اللاحق. غير أن سير الجدل عند هيغل ليس منطقيا ومجردا فحسب بل انه يجب أن يستعين بعناصر التجربة الجديدة حتى ولو لم تكن لها صلة منطقية به. ويذهب هيغل إلى أن الثلاثية (Triade) هي الصورة الصحيحة للفكر، لا بوصفه إطارا فارغا للوضع ونقيضه وللمركب منهما، بل بوصفه الوحدة الدينامية للأضداد، فهو الصورة الصحيحة للعقل لأنه الصورة الصحيحة لواقع يكون كل موجود فيه هو الوحدة المركبة من أوضاع متضادة.

وقد اعترف المنطق التقليدي بهذه الحقيقة حين عرض شكل الحكم على انه "ع" هو "ل" فلكي نعرف ما يكونه الشيء "ع" حقيقة، فإنه يتعين علينا أن نتجاوز (Le dépassement) حالته المعطاة مباشرة "ع هو "ع"، أي ثبات هويته وأن نتبع العملية التي يتحول فيها إلى شيء غير ذاته "ل" على أن "ع" يظل هو ذاته "ع" خلال العملية التي يصبح فيها "ل" فحقيقته هي تلك العملية الديناميكية الكاملة التي يتحول فيها ويصير إلى شيء آخر ويتوحد فيها بالآخر الذي ينتمي إليه.

وهكذا فإن الأنموذج الجدلي يمثل وكما سبق أن اشرنا عالما تشيع فيه حالة السلب، عالم يكون فيه كل شيء مختلفا عما هو عليه في حقيقة "هويته" ويلعب فيه التضاد والتناقض دور قوانين التقدم، ومن ثم الأنموذج الجدلي هو "حقيقة" هذا العالم"[5].

لكن الجدلية في نظر هيغل ليست فقط قانونا للفكر، بل إنها أيضا قانون للكينونة (Being , être) وهو يعني بذلك أنها مفهوم يمثل بذرة لكل من الواقع ومن الفكر معا. فالكينونة لا يمكن تصورها مفهوميا وبشكل مجرد أو معزول حيث أنها عند نقطة اللاتحديد هذه تظل فارغة لدرجة أنه لن يكون لها من محتوى سوى العدم. تلك هي الحقيقة التي يستخدمها هيغل كوسيلة لإثبات الطابع السلبي للواقع. لذلك يرى هيغل أنه لا يوجد شيء واحد في العالم لا يجمع، في ذاته، بين الوجود والعدم، فكل شيء لا يكون إلا بقدر ما يظهر، في كل لحظة من لحظات وجوده في شيء لم يوجد بعد، ليتحول بذلك من شيء موجود بالفعل إلى اللاوجود. ولذلك فإن الأشياء لا توجد إلا بقدر ما تظهر وتختفي، من خلال هذه الصيرورة الوجودية "[6].

وهكذا أيضا فإن الجمع بين الوجود واللاوجود، الظاهر في تركيب الموجودات، يجب الاحتفاظ به في كل مقولة منطقية: " ذلك أن هذه الوحدة الجامعة بين الوجود والعدم، بوصفها الحقيقة الأولى، هي الأساس القاطع لكل مايليها وعنصره الأصلي ومن ثم فإن كل التحديدات المنطقية الأخرى، وإلى جانب الصيرورة ذاتها، وبالاختصار كل التصورات الفلسفية، هي أمثلة لهذه الوحدة "[7]. فالكينونة والعدم شيء واحد إذن، ومع ذلك فإنهما ليسا نفس الشيء، وذلك كأن نفكر مثلا في شيء ما وفي اللاشيء في آن واحد. لأن كل حد ليس له معنى إلا بالأخر: فعند نقطة اللاتعين هذه ليس الكائن سوى ما ينفصل عن العدم وليس العدم إلا نقصا، أي غيابا للكينونة، " فالكينونة والعدم، إذن متعارضان ومؤلفان مع ذلك لزوج، لا ينحل أي منهما فيه لأنه لا وجود لأحدهما ولا تفكير في أي منهما بدون الأخر، الوجود إذن هو في أن وجود وعدم، صيرورة من الوجود إلى اللاوجود، فلا يوجد شيء في السماء أو على الأرض إلا ويحوي معا الوجود والعدم أي لا يوجد شيء ليس صيرورة (Devenir)"[8].

إن الصيرورة بالتالي، وفي هذا المستوى، شكل من أشكال الحركة الأكثر بدائية: التغير البسيط الانتقال من الوجود إلى العدم، ومن العدم إلى الوجود. غير أن الكينونة إدا كانت مجرد صيرورة، وإذا كانت ليس بإمكانها أن تكون بدون العدم الذي يحاصرها، " فإنها لا تتحدد إلا بحدها أو نهايتها، متمثلة في هذا الخط الناتئ الذي بعده تسقط في اللاكينونة "[9]، بعبارة أخرى أن الكينونة لا تتحدد أو تتميز إلا بما يحدها وينفيها في الوقت نفسه باعتبارها ليست هي وهذا ما أكده سبينوزا (Spinoza 1632-1677 م) حين قال: " بأن كل تعيين هو نفي ".[10]

ويعتقد روجيه غارودي أن في مثل هذا الانتقال من الوجود إلى اللاوجود فإن الوجود لا يتبخر: فاللاوجود بالنسبة لوجود معرف هو وجود آخر يحده، يحصره نوعا ما في حدوده، باختصار يعينه. إن مثل هذا الوجود المحدد هو ما يسميه هيغل "بالوجود هنا " (L'être la) إنه ليس الوجود بوجه عام، بل شيء ما ليس ككل شيء، لأنه علاقة مع شيء أخر تجعله يتفرد ويتميز تجاهه (ذاك الشيء الأخر). لكل ذلك فإن التجاوز في الصيرورة لا يعني بالنسبة " لهيغل " إعداما بل تحولا لما أبيد، إنه المباشرية الأولى ممثلة في الانتقال إلى شيء أخر أو حالة أخرى، إن

ذلك يعني أن الوساطة تتظاهر في شكلها الأول من خلال الصيرورة. بذلك يكون مفهوم التجاوز (Dépassement) عند هيغل هو هذا المضي من الحضور المباشر إلى التوسط الذي يمكن أن يتخد الأشكال الأكثر تنوعا.

وإذا ما استخدمنا صورا مكانية وزمانية لتوضيح الصيرورة أكثر، لقلنا أن موضوعا ما من الموضوعات لا يمكن مثلا أن يعرف، مكانا، إلا بوساطة موضوعات أخرى هو في علاقات معها، وزمانا إلا، بالأوضاع الماضية والحاضرة والمقبلة. لكل ذلك فإن سير الصيرورة من كائن إلى كائن آخر، أي من الماضي إلى الحاضر ليس نفيا للشيء أو للماضي أو الحاضر بل تجاوز لهما، أو قل إنه نفي واستيعاب لهما في نفس الوقت. ولكل ذلك أيضا يرى هيغل أن الوجود، لا يستطيع أن يكون بدون اللاوجود الذي يرسم خطوط محيطه وشكله،والذي ليس العدم المحض، بل الكائن الآخر " الذي يوضح الوجود من خلال إضفاء الكيف والصفة عليه، حيث أن كل وجود لا يملك مثل هذا الكيف الخاص إلا لأنه ليس الكل، ذلك الكل الذي يضغطه (أي الوجود) ويوقفه، ويكبحه في خصوصيته وجزئيته الخاصة "[11].

وإذا كان هيغل قد أكد أن الجدل في نظره ليس فقط قانونا للفكر بل إنه أيضا قانون الكينونة كذلك، فإن سلفه الأبعد، وهو هنا هيراقيطس كان، وكما سبق أن أشرنا، أول من قال بتلازم كل من الكينونة والعدم ذاتيا. في الصيرورة، لأن كل شيء، وكما أضاف " في حركة صراعية وتبدل، فكل شيء يمضي من خلال هذه التعارضات وهذه التنازعات في حرب متواصلة، ومتواجدة في كل مكان، ومولدة لكل شيء "[12] ولكل تقدم.

على ضوء ما تقدم تبين أن الفلسفة الهيغلية، فلسفة صيرورة بدورها حيث أنها تجعل من التناقض مصدرا لكل حركة ولكل حياة، كما تفسر تحول الشيء من وضع قائم إلى آخر، أي تحوله إلى شيء آخر، على أنهما موجهان بدافع من إمكانات الشيء ذاته، لأن تحوله لا يحدث، وكما يبدو لأول وهلة، " وفقا لوجوده من أجل الآخر بل وفقا لذاته الخاصة..."[13]، " وفي إطار عملية التغير التي تستوعب منها الصيرورة كل شرط خارجي للوجود الخاص للشيء، لتضع "الشيء" الآخر المقابل له باعتباره لحظة خاصة به (أي بالشيء الأول) "[14]. فليست عملية الوجود إذن سوى تناقض مستمر ومتجدد بين الأوضاع القائمة وبين الإمكانات. من هنا فإن وجود الشيء وكونه متعينا، هما شيء واحد..." فالشيء لا يكون له وجوده المتعين إلا في الحد والحدود من جهة هي مبدأ ما تحده "[15]. هكذا يلخص هيغل انطلاقا من هذا التفسير الجديد للوجود إلى " أن وجود الأشياء هو عدم استقرار الشيء في حده فالحد يكمن فيه التناقض الذي يدفع الشيء إلى ما وراء ذاته"[16]. وهنا نصل إلى قضية التناهي عند هيغل؛ فالوجود عنده صيرورة مستمرة حيث أن كل حالة من حالاته ينبغي تجاوزها لأنها شيء سلبي، تتخلى عنه الأشياء، مدفوعة بإمكاناتها الباطنة، في سبيل حالة أخرى، تتكشف بدورها على أنها سلبية، وعلى أنها حد، وهكذا دواليك.

وقد بين هيغل كيف ينتهي هذا التضاد والصراع بين الأضداد في النهاية إلى وحدة شاملة، وذلك عن طريق ثلاثيته الجدلية التي سبقت الإشارة إليها والتي نجد فيها الشيء وضده يتحدان ثم يظهر مركب منهما أي شيء آخر جديد لا يلبث أن يظهر ضد له لتبدأ الثلاثية الجدلية الصيرورية من جديد، وهكذا دواليك. وتلك هي في الحقيقة حركة

الفكر الدائمة نحو اصطياد المجهول، أن الشيء ينمو ويتطور من خلال نشاط الذات، بينما تصير الذات فعالة ومؤثرة، وهذا السير، سير الذات وسير الشيء معا، هو عملية مستمرة من التطور والنمو تبغي تحقيق المطلق (l'absolu) الذي يمثل في النهاية تمام الانسجام بين الأضداد. وعلى ذلك يصبح المطلق هو تلك الوحدة الشاملة التي تجمع الأطراف المتناقضة، كما يصبح الأساس الأول الذي يوصلنا إلى الحقيقة. إنه الاعتراف بتضاد الأضداد وانسجامها، فكل إثبات يتضمن نفيا وكل نفي يتضمن إثباتا. من هنا فإن " ما يميز تركيب التضاد هو أنه يحتوي، في ذاته على بذرة التطور ومبدئه، أما تركيب الأجزاء في الشيء الواحد فهو مختلف تماما، فهو لا يتضمن أي حافز للحركة والتطور، لأنه لا يحتوي تناقضات ولا أضداد متقابلة، فالأجزاء تبقى فيه محاور ساكنة، ومعطى ساكنا، أعتبر منذ البدء حقيقيا، أي أنه لا يمتلك الحوافز التي تملي حركته وتجعله يتجاوز الأجزاء نحو وحدة أكمل "[17].

هكذا يتفق هيغل، مبدئيا، مع هيراقليطس في مفهومه للصراع بين الأضداد أي بين الوجود واللاوجود، كما يتفق معه أيضا في قوله بإتحادهما، غير أن هيغل يختلف عن هيراقليطس في الطرف الثالث للعملية الجدلية ألا وهو مركب الشيء وضده، حيث يبدو أن هذا المركب لا يمكن أن يعتبر عنده " هيغل" من إنتاج الفكر وحده بل لابد من الاستناد إلى التجربة في صياغته ويمكن التجاوز عن هذا النقد إذا وضعنا هذه الجزيئات في نطاق فلسفة هيغل بأكملها حيث أننا نجد الفكر، أي " اللوغوس " عند هيراقليطس هو الحقيقة الأولى للوجود. ولذلك قال هيغل أن كل ما هو واقعي فهو عقلي (tout rationnel est réel et tout réel est rationnel) وكل ما هو عقلي فهو واقعي. ويعلق غورفيتش (Gurvitch -1894-1965م) على هذه المقولة بقوله: " إن الواقع أو الكائن، عند هيغل هو، قبل كل شيء، المطلق، ثم بعد ذلك الواقع الحقيقي، أي العالم المحدث، وأخيرا، أنه العلاقة بين الاثنين "[18].

بناءا على ذلك يمكن موافقة هيغل في قوله: " أن الله قبل أن يخلق العالم كان ذاتا غير قابلة للمعرفة، ولكنه بخلقه للعالم خلق نفسه، وأصبح هو و العالم شيئا واحدا "[19]، إذن هناك أولا: الله باعتباره مطابقا للكائن، أو الوجود (Etre). وهناك ثانيا: الله باعتباره العالم المحدث، وأخيرا هناك الله والعالم متحدين ومصلحين لكل تضاد. هكذا يسير العقل حسب هيغل دوما عبر هذه الحركة الديالكتيكية (القضية ثم نقيضها ثم تركيبها)، وهكذا ينتهي بنا الجدل إلى المطلق، وهو الجدل الذي يقوم على فكرة الأضداد (من الشيء إلى ضده) التي تعطي لنا معنى الصيرورة. ذلك أن فكرة الوجود وكذلك اللاوجود عند هيغل فكرتان فارغتان لا محتوى لهما، والانتقال من الواحدة إلى الأخرى هو الذي يقصده بالصيرورة، التي تعد صفة أضفنا أو كيفية أضفيناها على الموجود اللامعتين وهي الكيفية التي تسمح للموجود بأن يرتبط مع غيره من الموجودات الأخرى وأن يجد مكانه بينها، فكأن جميع الكيفيات توجد في الموجود بالقوة، كما تسمح بتحول الموجود. وهكذا تطرح مشكلة اللامحدود وعلى هذه المشكلة يجيب هيغل " بأن التركيب المشتمل على الوجود الخالص والتعيين أو التحديد إنما يسمح باللاتناهي في دائرة الشيء نفسه حيث أن الشيء كلما تغير كلما تحققت ذاته بدرجة أكبر "[20]. وإذا كانت تلك هي الكيفية البارعة التي أكتشفها وتأثر بها هيغل بمفهوم الصيرورة عند هيراقليطس فإن ذلك لا يلغي مع ذلك العديد من الاختلافات بين الفيلسوفين بالنسبة لهذا الموضوع وهي الاختلافات التي تعرض للبعض منها فيما يلي:

1- لقد أراد هيغل من خلال ثلاثيته الجدلية تركيب كل من الوجود، ومن الصيرورة في وحدة تتجسد في الروح الكلي أو العقل المطلق، وذلك من خلال هدا الصراع، الذي لا يعود فيه اللاحق السابق إلى تكرار نفسه، في نفس الدورة، بل صراع يتقدم من خلاله ويتطور العقل الإنساني نحو ذلك العقل المطلق عبر أجيال الإنسانية. بذلك تدخل الأمم والشعوب، عن طريق الحرب (La guerre)، فيما يشبه السابق المتلاحق نحو التطابق مع هذا المطلق، الذي يكاد تسهم فيه كل أمة أو شعب الحاملة لمشعل والحرية التي تشكل جوهر ذلك المطلق وهدفه، حتى تلتقطه أمة أخرى لتسير به قدما، قبل أن تسقط بدورها وتحل محلها أمة أخرى لتواصل نفس المسيرة، هكذا يضفي هيغل على الصيرورة طابع المعقول " بعد أن كانت لدى هيراقليطس ظاهرة غير معقولة "[21] أو مفهومه، تماما كما يضفي عليها بالتالي غائية، وهي المتمثلة في تطابق الإنسانية مع ذلك الروح المطلق الذي هو عند هيغل الله تارة والحرية تارة أخرى.

2- ونتيجة لذلك فإن هيغل قد أخرج صراع الصيرورة الذي كان يجري داخل الوجود، وفي حركة دورانية متجددة أبدا، إلى خارج الوجود، ليحوله إلى حركة تاريخية متجاوزة لأطرافها الثلاثة الأساسية يحكمها العقل أو الروح المطلق، المنبعث عن أبدية ثابتة، وهي الحركة التي لم يفكر فيها هيراقليطس أبدا و لم يقل أنها متجاوزة لذاتها بالتالي. بذلك فإن الصيرورة عند هيغل ليست، وكما هو الحال عند هيراقليطس، هي التي تهدم الوجود كما يهدم الموت الحياة، والليل والنهار، وتعيد بناؤه باستمرار بمثل تلك الحركة الدورية التي تعتبر نهايتها هي بدايتها، والتي لا تهدف إلى غاية، بل إنها حسب هيغل ما يبنى به الوجود من خلال تجاوزه المستمر لذاته نتيجة لتلك الحركة الجدلية المتجددة دوما والهادفة نحو المطلق.

3- إن هذا الفرق بين كل من مفهوم هيراقليطس ومفهوم هيغل للصيرورة هو الذي يجعل الفيلسوف اليوناني يتحدث عن " الواحد " الذي يظل كذلك بالرغم من تلك المتضادات، ومن تلك الصيرورة، واحدا بمعنى آخر لا وجود عند هيراقليطس لصيرورة للوجود، بل هناك صيرورة في الوجود. بمعنى آخر أنه لا وجود عند هيراقليطس لصيرورة للوجود بل هناك صيرورة في الوجود تماما كما أنه لا وجود عنده كذلك، وبالتالي للتاريخ الذي يعتبره هيغل، وكما سبق أن أشرنا أساس كل فلسفة وكل عقل والذي لا يتحقق إلا بالصراع بمفهومه الحربي، بين الأضداد. وهكذا فإن " حياة النار عند هيراقليطس، تولد من موت الأرض، وحياة الهواء، تولد من موت النار، وحياة الماء تولد من موت الهواء، وحياة الأرض تولد من موت الماء، فموت النار تحمل إذن حياة الهواء وموت هذا الأخير يحمل حياة الماء، وموت الأرض يحمل حياة الماء، وموت هذا الأخير يحمل حياة الهواء، الذي لا يلبث موته أن يولد حياة النار لتعود تلك السلسلة من جديد، وهكذا دواليك "[22]. هكذا يتحول كل شيء ويصير حسب هيغل داخل الوجود بدقة وبعدل يجعلانه لا يتجاوز حدوده، وهذا عكس هيغل " الذي جعل من التجاوز (Dépassement) أساس الصيرورة "[23]. ومن هنا لابد أن نلاحظ أن هيغل قد تبنى أطروحة هيراقليطس وانتهى من خلالها إلى طروحات وإلى نتائج فلسفية مضادة، لما قصده الفيلسوف اليوناني الكبير. فإن كارل ماركس (karl Marx 1818-1883م) سيفعل الشيء نفسه بأطروحة هيغل حول الصيرورة وذلك بتحويل جدلية هذا الأخير، ومن خلال الجدلية الجديدة (الجدلية المادية) " Le Matérialisme dialectique"، من الميدان المثالي إلى

الميدان المادي، الذي يمثل، فيما ذهب، أساس كل وعي وكل فكر، وكل تاريخ وكل تقدم أو تطور إنساني، إجتماعي كان أو اقتصادي، أو ثقافي أو أساسي. يقول "كارل ماركس " في هذا الصدد " إن منهجي الديالكتيكي لا يختلف عن المنهج الهيغلي من حيث الأساس وحسب، بل إنه الضد المقابل له مباشرة، فبالنسبة لهيغل، إن عملية تطور الفكر ونموه، هذه العملية التي يشخصها ويعتبرها مستقلة، ويطلق عليها اسم الفكرة، هي في نظره خالقة الواقع، فما الواقع في نظره إلا المظهر الخارجي للفكر. أما بالنسبة لي فإن عالم الأفكار ليس إلا العالم المادي منقولا إلى الذهن البشري ومترجما فيه " [24]. هكذا حول كارل ماركس الفلسفة عامة والديالكتيك من ديالكتيك "يسير على رأسه إلى ديالكتيك يسير على قدميه " [25].

ولكل ذلك كانت وستظل فلسفة العودة الأبدية الهيراقليطية مصدر إلهام متجدد لكل الإنسانية عامة، ولكل باحث عن المعنى العميق للوجود وللمصير الإنسانيين بصورة خاصة.

الهوامش:

(1) - Granger (G.G), La raison, P.U.F, Paris, 1955, Rèed 1984, PP. 18-19.

(2) - G.W.F Hegel: leçon sur l'histoire de la philosophie, trad. Franc, H. Lefebvre, et N. Guterman, Morceau choisis, Paris, Plon, 1939, P. 317.

(3) - Ibid

(4) - د. علي سامي النشار: هيراقليطس فيلسوف التغيير وأثره على الفكر الفلسفي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1969، ص. 354.

(5) - هربرت ماركيوز : العقل والثورة: هيغل ونشأة النظرية الاجتماعية، ترجمة: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1970، ص. 69.

(6) - ولترستيس: فلسفة هيغل، المنطق، الفلسفة، الطبيعة، ترجمة: إمام عبد الفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983، ص. 98.

(7) - نفس المرجع، ص. 118.

(8) - هيغل : محاضرات في تاريخ الفلسفة، ترجمة: د. خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1976، الطبعة الأولى، ص. 232.

(9)- غارودي: فكر هيغل، ترجمة: إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1983، الطبعة الثانية، ص. 221.

(10)- سبينوزا باروخ: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 2005، ص. 56.

(11)- ريني سيرو: هيغل والهيغلية، ترجمة: نهاد رضا ، دار الأنوار، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993، ص. 36.

(12)- ولترستيس: فلسفة هيغل، المنطق، الفلسفة، الطبيعة، ص. 137.

(13)- نفس المرجع، ص. 138.

(14)- نفس المرجع، ص. 140.

(15)- نفس المرجع، ص ص. 140 ،141.

(16)- د. محمد شفيق شيا : مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، مؤسسة نوفل، بيروت، 1981، الطبعة الأولى، ص. 80.

(17) - Gurvitch (G) : Dialectique et sociologie, Flammarion, Paris, 1962, P. 152.

(18) - نفس المرجع، ص. 84.

(19)- د. علي سامي النشار: هراقليطس فيلسوف التغيير وأثره في الفكر الفلسفي، ص. 360.

(20) - Wahl (J) : Traite de métaphysique, PP. 686, 687.

(21) - Héraclite : Fragt, 31, (Le feu).

(22) - J. Brun : Héraclite ou la philosophie de l'éternel retour, 17éditions, Seghers, Paris ,1965 - 1969, PP. 45-46.

(23) - ماركس كارل: رأس المال، دار مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1947، ص 60.

(24) - Vassili Padossetnik : Le Matérialisme dialectique, Edition du progrès, Moscou, 1979, P. 29.

(25) – Brun (J) : Héraclite, P.19.